عبدالله بلخير

والتجربة الشعورية والتاريخية

في مطولة « لا غالب إلا الله »

بقلم
د. محمد أبو بكر حميد

التاريخ بقلم الأديب غيره بقلم المؤرخ، وليست هذه الحقيقة كشفا جديدا فقد أدركها أرسطو في القرن الرابع قبل الميلاد عندما قال إن «الشعر أوفر حظا من الفلسفة وأسمى مقاما من التاريخ». وإن كان قد قصد بها الشعر المسرحي إلاّ أن هذا ينطبق على التجربة الأدبية عموما، ذلك لأن وظيفة الأدب ليست رواية ما وقع بالضبط فيما مضى ولكن استخدام ما حدث في الماضي للتحذير مما يمكن أن يقع في الحاضر أو المستقبل، لهذا قيل: إن عالم الشعر - في توظيفه لما حدث في الواقع، وتجاوزه له - أقدر على إدراك أسرار القلب الإنساني «لأنه يحسن استنباط المنطق من الأفعال الإنسانية والانفعالات، ولهذا كان أكبر حظا من الفلسفة».

ولما كان الشعر تجربة شعورية في المقام الأول والأخير فإن التاريخ يتحول إلى عنصر من عناصر هذه التجربة، يمتزج بها بحيث لا يمكن فصله عنها. هذا هو حال قصائد الشعر الجيدة التي تتخذ من تجربة التاريخ إطارا لتجربتها الشعورية . وهو ما نلمسه بصدق في قصائد شاعرنا الإسلامي "عبدالله بلخير" التي يتصل فيها بالتاريخ، وخاصة " الملاحم الأندلسيات السبع " . فإذا كانت تجربة المسلمين في الأندلس تستدعي إلى شعر المسلم ذكرى وشجنا وحسرة فما بالك برجل مثل "عبدالله بلخير" الذي لم يقف أمام هذه التجربة كشاعر يعتمد على خصوبة خياله فحسب، وإنما كمسلم عالم بتاريخ أمته علما يكاد يصل إلى دقة المؤرخ

. فالشاعر "عبدالله بلخير" لم يكتف بقراءته وتمثله للتاريخ وإنما طوّف بالأرض ولم يترك بقعة مر بها المسلمون إلاّ وقف عندها يستدعي أحداثها ذاكرا معتبرا. ومن مثل هذه اللحظات تختلط التجربة الشعورية والتجربة التاريخية في وجدان الشاعر قلبا وعقلا، فينتج عنها ما يمكن وصفه بحق:«صدق التجربة الشعورية في القصيدة»، وهو ما تفيض به مطولات شاعرنا الكبير "عبدالله بلخير" الأندلسية، التي يمكن أن نسميها «المعلقات البلخيرية» إذا جاز التعبير.

وعندما نقف عند مطولة «لا غالب إلا الله» – كمثل من الأمثلة – نجد أنفسنا أمام مدخل قوي للقصيدة لضخامة المعنى الذي يحمله العنوان، معناه «الإيماني» ومدلوله «التاريخي». فالقصيدة تعبر بنا في رحلة لا أقول «تاريخية» ولكن أقول «شعورية» من خلال وجدان الشاعر المتقد إلى الأندلس، وتقف بنا أمام «قصر الحمراء»، وتنطلق شاعرية الشاعر تحت ضغط الوعي الشديد بالتاريخ– تقول بأسى:

طافت الذكريات بي في ذرى (الحمـ
ـراء) في عالم على المجد مرسي
طفت فيها وفي حناياي منها
زفرات الواعي، العليم، المحس
طفت أرجاءها وبين صياصيـ
ـها كأني أطوف فيها برمس

هذه الصورة النفسية لا يمكن أن تنقلها لنا عدسة آلة التصوير، ولا يمكن أن يشعر بها الزائر للحمراء غير الواعي بتاريخها، لكن "عبدالله بلخير" الشاعر المسلم لم ينشد في الحمراء فخامة البناء وروعة النقوش، ليقف بإعجاب كما يقف الزائر الذي ينشد المتعة الفنية لذاتها فقط . وإنما هذه «المتعة» و «الروعة» تتحول في نفس الشاعر المسلم إلى «زفرات الواعي العليم المحس»، لذلك فهو لم يقل كما يقول السائح فيها وإنما قال:«طفت فيها» بكل ما توحيه كلمة الطواف في نفس المسلم من معاني روحية وقدسية وما تحمله من ظل نفسي وروحي، لذلك فهو يحس كأنه يطوف فيها «برمس» .. شيء لم تعد فيه روح ولا حياة. فالمشاعر تلتهب، والكبد تحترق، والقلب يأسى لهذا المشهد، كيف لا ؟ وهو قد جاءها كما يجيء «الملبون» «إلى أم القرى .. إلى دار قدس» . فأي مشهد هذا الذي يرسمه لنا الشاعر بروعة ويعكس ظله النفسي علينا، عندما تقع عينه على الحمراء فهو:

مشرئبا إلى رفافها أر
نو إليها تفيض بالحزن نفسي
خاشع الطرف عندما لاح لي فيـ
ـها (المصلى) ولاح (تاج) و (كرسي)
فاقشعرت مشاعري وتراءت
لي رؤى حاضري الحزين كأمسي

من خلال هذه «اللوحة النفسية»المؤثرة تتجلى لنا اللحظة الفاصلة بين الفنان والمؤرخ، وكيف يتفوق الأديب

على المؤرخ عندما يتجاوز الأول حدود ما وقع في الماضي إلى حدود ما يقع الآن واليوم في «النفس» .. في نفس الشاعر ونفس القارئ. فعبدالله بلخير لم يهتم بوصف ما تبقى من آثار الحمراء ولكنه وصف لنا ما أحدثته مشاهدة هذه الآثار في نفسه، ولذلك فهو يجعل بيننا وبينه «تواصلا» نفسيا و«مؤثرا نفسيا» يستمر طيلة القصيدة . هذا «التواصل» نراه في «حركة درامية» من خلال كلمات فيها حركة مثل «مشرئبا»، وفيها عاطفة صادقة ومشاعر مخلصة مثل «تفيض بالحزن نفسي»، وفيها «إيمان» مثل «خاشع الطرف» ويتم هذا الخشوع عندما يرى (المصلى) الذي لم يعد يصلي فيه أحد، و(التاج) رمز السلطان الإسلامي الضائع، و (الكرسي) الذي تركه صاحبه عندما لم يعد يستحق الجلوس عليه . في هذه الكلمات الثلاث (مصلى) و (تاج) و (كرسي) يوجز لنا الشاعر الفنان قصة الإسلام الذي زال من الأندلس دينا ودولة . مثل هذه الكلمات التي يفيض بها قلب الشاعر استغرقت معانيها من المؤرخين صفحات كثيرة (!!)، ثم ينهض الشاعر إلى هذه «الوصلة النفسية» التي تمتزج، ويتلاقى فيها الماضي والحاضر، فتقشعر الأبدان، ولم لا؟! فما أشبه الليلة بالبارحة:

فاقشعرت مشاعري وتراءت
لي رؤى الحزين كأمس

وفي هذه اللحظة، يأخذنا الشاعر في رحلة شعورية مرئية إلى مشاهدة لوحات من الماضي العظيم، وهو يرى خيول المسلمين «كالصبح في صهيل وعس» والمجد الأثيل الذي أسسوه هنا، ونداء «الله أكبر» تردده جنبات وديان الأندلس:

والأذان الداوي على الهضبات الـ
خضر يدعو إلى فرائض خمس

ولقد أنتج الحرص على هذه الفرائض الخمس، والإيمان الأثبت من الجبال الرواسي في قلوب الرجال الذين أدوها إذ تحولت الأندلس إلى منارة للعلم في قلب أوروبا، التي كانت تتخبط في ظلمات العصور الوسطى وطغيان الكنيسة. وهنا يصور لنا الشاعر هذا الموقف الأخاذ الذي نشاهد فيه طلاب العلم الأوربيين يتوافدون ويقفون في طابور بانتظار الدخول على علماء المسلمين بلهفة وشغف وإجلال وإكبار .. لم يكن هذا خيالا، وإن بدا كذلك للذي لا يعي تاريخ أمته:

كانت الأرض كلها تتلاقى
حول أبوابها من كل جنس
تتلقى العلم الغزير من أعـ
ـلامها الغر من إمام وكيس
ووفود الرومان والغال و الجر
مان) حول الأبواب أطياف نكس
وقفوا في الصفوف يلتمسون الإذ
ن لا ينبسون فيها بنبس
كلما لاح حاجب حفت الأنـ
ـظار منهم به ولفّت بوجس
شرف باذخ لهم أن يقوموا
في صفوف على ظلال الدرفس

ولكن هذا المشهد الرائع لم يدم، فالحال اليوم لم يعد هكذا، فما يلبث أن يعود الشاعر إلى الواقع المرير، وهو يشعر بالهوان والانكسار من الحال الذي تردت إليه أمته، فتعالوا نشاهده في هذه اللوحة المؤثرة:

فتهاويت خائر العزم ثاوٍ
واضعا راحتيَّ من تحت رأسي
شارد الذهن لا أرى ما أمامي
حاسبا رجس أمتي أمس رجسي
وعلى هامتي هواني على نفـ
ـسي هوان المجني عليه المخس
فكأني وحدي الملوم على تعـ
ـس جدودي يهزني هول تعسي

فشتان ما بين هذه اللوحة وسابقتها، وهكذا لم يدعنا الشاعر الفنان ننعم بنشوة اللوحة الأولى ونحن نرى الغرب يقف في طابور الانتظار على أبواب المسلمين، ولم يقل لنا قد انقلبت الآية، وهل هو بحاجة لأن يقول لنا؟! لم يقل ذلك وإنما كفنان ماهر صور لنا «عذابه النفسي» وضميره اليقظ الواعي الذي جعله يحس كأنه وحده الملوم بما حدث لأمته. وهذه «لقطة» رائعة من الشاعر لا بد من الانتباه

إليها، فهو يريد أن يقول: لو أن كل مسلم شعر بأنه هو المسؤول عما حدث لأمته من هوان لاستيقظت الأمة دفعة واحدة، ولتحركت حركة موحدة إلى الأمام، ألم يقل (أبو بكر) رضي الله عنه «لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه إلى رسول الله ¤ ' لقاتلتهم عليه!» وأحس (عمر) رضي الله عنه أنه سيكون المسؤول أمام الله حتى عن عثرة بغلة أو عنزة بالعراق. إنه الإحساس العظيم بالمسؤولية التي لم يحملها الخليفة وحده وإنما كل مسلم.

ويمضي بنا الشاعر عبدالله بلخير في موكب حزين تحتشد فيه الذكريات، فيسكب الدمع، ويقول بتواضع: إنه لم يكن الوحيد الذي يقف هذا الموقف وإنما سبقه البحتري وشوقي وغيرهما . ثم يقف موقفا شجاعا مع النفس، ويحلل تجربة سقوط الأندلس تحليلا واقعيا فيجد أن أهم هذه الأسباب التناحر بين المسلمين أنفسهم واستعانتهم بالعدوالكافر على بعضهم بعضا، ثم اختطاف كل منهم لقطعة أرض يقيم فيها لنفسه سلطانا:

من ملوك الطوائف الخنس الفجـ
ـر في عـالم رديء وتعس

وقد أدى انحسار الإيمان عن القلوب إلى الضعف والسقوط في مهاوي الفتنة، فتهاوى كبار الرجال بين أرجل «نساء القوط» ناعمات المجس، ويرسم لنا الشاعر الفنان صورة حية لسحر هؤلاء الإناث، ولرجال أجلاء كانوا كبارا بالإسلام يصغرون اليوم بدونه، بالنساء:

فـإذا مـا ثملن حـركن من أبـ
ـناء قحطان كل أرعن شكس
يتعثرن من مدى السكر ما بيـ
ـن لحاهم وبين دنٍّ وكأس

رحمك الله يا عبدالله بلخير! هذه هي المفارقة الرهيبة في حياتنا والتي أدت إلى سقوطنا منذ سقوط الأندلس إلى اليوم. ما هذه الصورة: رجال سكارى ونساء أثملهن السكر أيضا يشاهَدْن يتعثرن في مشيتهن بين لحى هؤلاء الرجال الجليلة وبين كؤوس الخمر، وإني أترك للقارئ هذه الصورة «معلقة» و «بلا تعليق» !! . ولكن هذا لم يفت شاعرنا الإسلامي الغيور فيمضي قائلاً:

فتنة دوخت عقول بني يعـ
ـرب باعوا الإسلام فيها ببخس
فتداعت صروح ملكهم تهـ
ـوي فضاع المجد المفدى بطمس

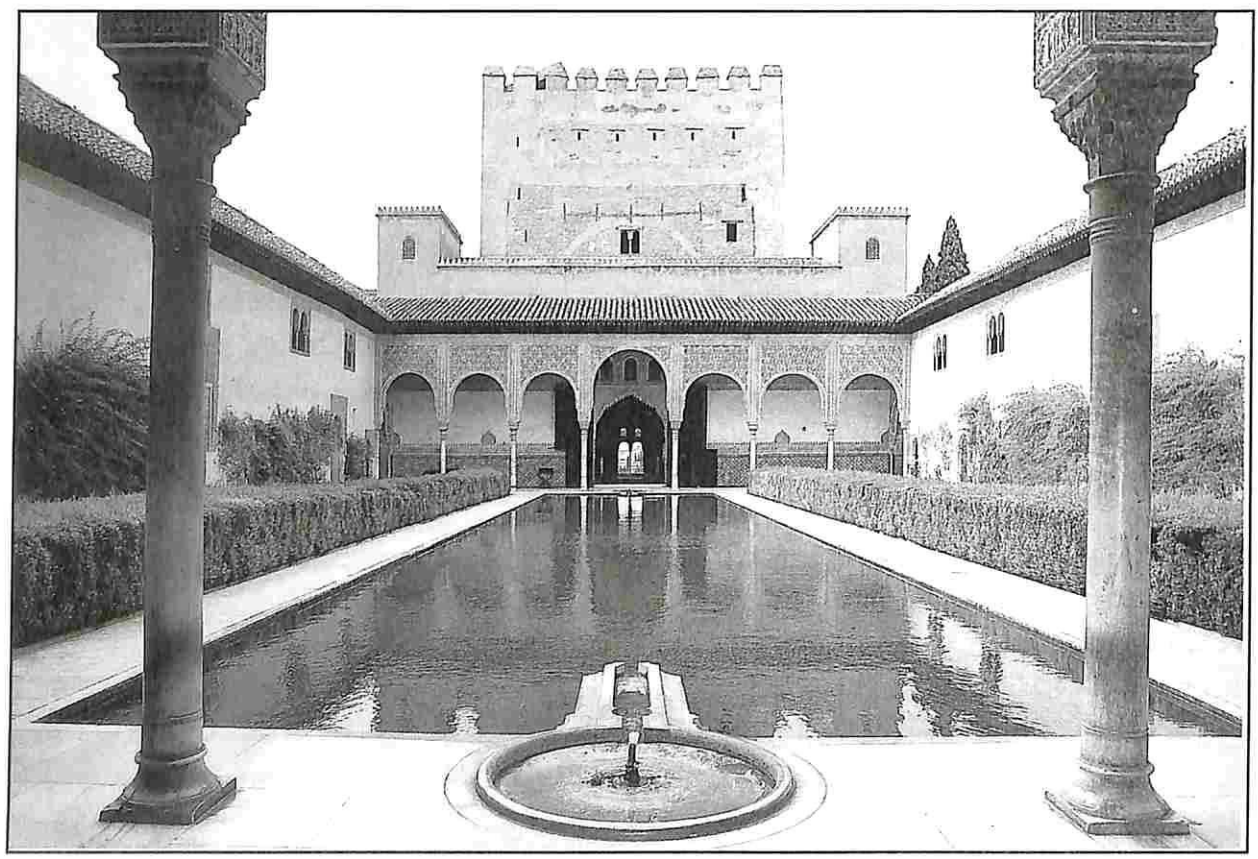

وانتهى ما بنى الجدود بأيدي
خلف فاجر السلوك أخس
ضاع ما ضاع في ندامة من شبٍّ
ـك كفيه بين فرك وفحس
فتردوا بالعار بين شعوب الأرض
طرا والخزي في كل طرس!

ويغضب عبدالله بلخير غضبة المسلم الغيور، وهو يرسم لنا لوحة خروج عبدالله الصغير آخر سلاطين غرناطة الخروج الأخير، ومن شدة هذا الغضب نجده حتى لم يذكر السلطان التعس باسمه، الذي نراه وأمه خلفه تبكته. كيف لا يبكي عبدالله بلخير ويغضب ويتمزق ألما وهو يشاهد أمامه أن كل شيء قد مسح من تلك الديار، ولم تبق إلا كلمات مكتوبة على الجدران ، تصرخ في وجوه الأعاجم تقول: «ولا غالب إلاّ الله»

ثم يقدم لنا شاعرنا لوحة الخروج المهول.. خرج (المسلمون) بالآلاف مطرودين بعد أن حنث النصارى بميثاق التسليم، ومات الآلاف منهم في أعماق البحر حينما لم تقبلهم أرض، خرجوا وقد حطموا بأيديهم «سفينة الإسلام» التي أقلتهم إلى هناك ﴿ .. وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ (النور) . إن يوم ٢ ربيع الأول ٨٩٧هـ (٢ يناير ١٤٩٢م) يوم سقوط غرناطة كان بداية لسقطات كثيرة وكبيرة بعده في تاريخ المسلمين، من هنا يوجد عبدالله بلخير «الوصلة الشعورية» بين الماضي والحاضر:

والمآسي تترى على العرب في
كل زمان ما بين برء ونكس
وفلسطيننا ومسجدنا الأقصى
تعالا عن أن يراعا بوكس
قلبنا الخافق المصفق في أو
طاننا بالحياة من غير لبس
خلق العالم الفرنجي إسر
ائيل في قوة تقيها وهوس

ويصل بنا الشاعر إلى الخاتمة في هذه المشاهد الطويلة التي غطى بها تاريخنا المرير بأن الهدف من سلسلة «الإهانات التي تعرضنا ونتعرض لها هي النيل من الإسلام، وأن السبب في هذا كله تخلي المسلمين عن «سفينة الإسلام»، ويحسبون «النجاة» في سفن أخرى قادمة من «الشرق» أو «الغرب»، ولن تقوم لهم قائمة إلا إذا عادوا بصدق إلى من لا ملجأ منه إلا إليه...

وفي نهاية المطولة الرائعة لا يتركنا عبدالله بلخير حيارى نتخبط في ظلمة النكبات، ونكتسي بالوجوم واليأس . وإنما هو يستشرف المستقبل، وكشاعر إسلامي يلمح لنا بالطريق ويرسم لنا لوحة رائعة من صور المستقبل . فهو يقول لنا: إن خليفة إسلاميا كعمر سيأتي يقود مواكب الفتح والعودة، ومن خلفه رجال على رؤوسهم عمائم بيضاء ومن فوقهم طائرات تقذف النيران حمما على الكافرين:

عمر في الطريق للقدس فلين
ـتظر الكون صبح ما كان ممس
لكأني به يقود سرايا الف
ـتح تختال في عمائم برس
وهو في عارض ترامى على الآف
ـق صواريخه أشعة شمس

هكذا تتحول «التجربة التاريخية» بين يدي شاعر مقتدر إلى «تجربة شعورية» صادقة، فنحن لا نلتقي بتاريخ جامد وإنما نجد أنفسنا نتفاعل وجدانيا مع صور شعرية تفيض بالحياة، ولوحات فنية بالغة التأثير في النفس . فلم تقم القصيدة على المعلومات التاريخية التي احتوتها بقدر ما قامت على الدفقات الشعورية المتوالية التي قام عليها تصويره الملحمي . وقد تجمعت كل هذه «التوترات النفسية» و «الدفقات الشعورية» لتثير في نفس القارئ شيئا يدعوه إلى العمل وإلى الإيمان . فالغضب عند المسلم لا يدمر وإنما يتحول إلى «حركة» إيجابية. هذا ما أعتقد أن شاعرنا عبدالله بلخير أراد أن يقوله من خلال «الدفقات الشعورية» في القصيدة، ثم ينهي هذا «الاحتشاد المشاعري» - إذا صح التعبير - بالحديث عن (عمر) الذي يقود جيوش المسلمين، لأنه كشاعر مؤمن يريد أن يقول لنا . إن المسلم لا يعرف اليأس، وإن الفجر سيأتي إذا جد السرى فيه رهبان الليل وفرسان النهار بصدق وعزيمة وإخلاص « ولا غالب إلا الله». ■